أمنا « داكوتا »

« بقية المنشور فى العدد الماضى »

... وانطلقت « داكوتا » تسبح فى الجو بكبرياء وصلف تهدر محركاتها كالغاضبة ، وتشق بدواليبها الهواء شقا ، وألقى ببصرى إلى الأرض ... الأرض التى يعيش عليها إخواننا أبناء البشر ، فإذا بها تتضاءل فى عينى وتصغر . حقاً إن الإنسان حرى بأن يبحث له عن عال أوسع من هذه الكرية الصغيرة ، فإنها ليست عظيمة الشأن إلى ذلك الحد الذى كنا نتصوره ، إنها صغيرة .. صغيرة جداً ، ولكن الذى يجعلها كبيرة فى حسباننا ، عظيمة فى مداركنا إنما هو ماحبانا الله به من نعمة التصور والخيال الذى نقرب به المسافات ونختصر بواسطته الأبعاد ، ولكننا فى الحالات الاعتيادية لانحس بهذا ولا نلتفت إليه ، فإذا ماتخلصنا من أسر أمنا الأرض ، وانطلقنا أحراراً فى أجواز الفضاء فإن سرعة تصورنا وخيالنا تنطلق هى الأخرى أعظم مما كانت وأبعد مدى ، أشهد أن المخيلة الإنسانية على ظهر أمنا « داكوتا » أوسع قدرة منها على أمنا « الأرض » .

وانتبهت على صوت الطفل الصغير وهو يناغى الركاب وهم يمازحونه ، فاذا بجو الطائرة يزداد بهجة ويملأه السرور وإذا الركاب أسرة واحدة يشتركون فى إحساس واحد ، انمحت منهم الفروق واضمحلت تلك الأقيسة التى صنعها الإنسان ليفرق نفسه وبقيت فيهم أصرة واحدة ، أصرة أصيلة هى الأخوة الإنسانية العظمى ، وتطلعت إلى أمنا الأرض من خلال نافذة الطائرة فاذا بنهر الفرات يتلوى كالثعبان متعرجا يرتقى المرتفعات ويعلو الأكمات ، هكذا خالداً منذ الأمد البعيد .. وإذا بالمدن تمر من تحتنا فى هدوء .. وفجأة رأيت على جناح الطائرة سائلا يجرى حيوطاً متلاحقة .. وفزعت .. لعل خللا طرأ على مخزن البنزين فى الطائرة .. وأرعبتنى هذه الفكرة ووقفت عيناى فى محجريهما تحدقان إلى لاشىء كالأبله .. ولفت نظر جارى الانجليزى فلم يعر الأمر اهتماما ، وأكد لى أنه « لاشىء » وكاد روعى يفرح ، ونفسى تطمئن لتأكيده لولا أنى تذكرت برودة الانجليزى التقليدية المشهورة فقمت أستنجد بالركاب أريهم هذا الذى يسيل على الجناح ففسر الطيار لنا ذلك بأنه إما أن يكون من فعل الأبخرة الجوية أو ماء اندلق على الجناح قبل الرحيل وهدأت النفوس لهذا التعليل فقد كان الطيار بالنسبة لنا نحن الركاب كالطبيب للمرضى لايصدر أحكاماً خاطئة أو مبتسرة ، فهو أب بين أطفال يتلاعب فى عواطفهم كيف شاء ويوجه مشاعرهم حيث أراد ...

هذه دمشق .. صاح أحد الركاب يلفت نظرى إلى أن عاصمة الأمويين تحتنا وتطلعت فإذا المروج تحيط بالمدينة التاريخية العظيمة وإذا بمزارع الحنطة منسقة على أشكال بديعة زاهية تبدو على شكل مربعات ، والمنائر شامخة نحو السماء تعلو الواحدة الأخرى فى اعتزاز وفخر .. وكأنما استغل الطيار فترة الهدنة بيننا وبين اليهود فى فلسطين فهبط بالطائرة قليلا ليعيننا على الرؤية فاذا الأبنية السامقة العجيبة تبدو وكأنها منقوشة نقشاً تزينهـــا تلك الطرق الواسعة الفسيحة وهذا السهل المنبسط الذى يحتضن أم المدائن .

وارتفعت الطائرة مرة أخرى فقد أقبلنا على الجبال .. الجبال المجللة بالثلوج البيضاء الناصعة كالقطن وياله من منظر ساحر حين تحس بالطائرة ترتفع وترتفع ، خشية أن تصطدم بالقمم الرائعة التى غطتها الثـــلوج فأصبحت لاتكاد تبين ، وحين تحد من نظرتك تلك القمم ثم تنفرج بغتة كالستارة المسرحية لتريك منظراً هو السحر بعينه ذلك